من ذكريات الصبا

هم جديد ...

أقصوصة عراقية

بقلم الأستاذ فيصل عبد الله

... كان من أثر مرضي الذي لازمني أشهراً أن رسبت في الامتحان ، وكان أبي رءوفاً بي فعرض عليّ أن أنتجع الصحة وأستعيد ما فقدت بسفري إلى بلد أخيه ، فرضيت بعد إلحاح وتردد .

وكان ما وجدته في البلد ، من مظاهر الطبيعة الفاتنة ومروجها النضرة ، وما يحيط بي في البيت من ترحيب وعناية قد أنسياني بعض النسيان ما ألمّ بي وبرّح ! ...

ولم يك من شيء يلفت نظري ويسترعي اهتمامي في ذلك البيت غير رحابته ، وكثرة ما فيه من ورود نضرة وأزهار زاهرة جمعتها حديقة فسيحة في ركن من ساحة البيت ، توسطتها نافورة زاهية تقذف الماء إلى علٍ فيخرّ من الجوانب رذاذاً ناعماً كنسمات دجلة ربيعاً ... تلك النسمات التي تساير دجلة في انسيابه كأنها تبادله عذب الحديث وساحر الأنغام ... وهو ينساب ...

ووجدت أنّ خير ما أقطع الوقت به أن أرعى الحديقة باهتمامي ، غارساً البذور وقاطفاً الثمار الناضجة ومبيداً ما يسرح فيها من الحشرات والديدان ، وما ينبت من طفيلي النبات ... وقد أثمرت عنايتي بعد أيام قلائل ، فغدت أزهى وأنضر مما كانت عليه كانت هذه الحديقة وما تحفل به الشيء الوحيد الذي شغلني فاستطاع أن يلهيني عما كان التذكر به يؤلمني ويعضني إلا أنني وجدت فيّ اهتماماً نحو شيء آخر أثاره السهوم والحزن العميق اللذان يتشح بهما ...

وما كان هذا الشاغل الجديد إلا ابنة عمي التي تقاربني سناً وتشابهني ملامح

كنت أراها تختلس النظر إليّ وتقف عن بعد وأنا لاهٍ بصويحباتي الزهر تلاحظ ما أفعل حتى إذا ما رفعت بصري إليها ، أشاحت بوجهها سراعاً كأنها لم تكن تراقبني . وكانت كزهرة مما أغرس ، لا تفترق في شيء عما أرعى من الزهر ، فقد كانت بارعة الجمال فاتنته ، ساحرة اللحظ ، في عينيها حول يكاد لا يبين ...

كانت تدنو مني وأنا بين الزهر أسقيه وأرعاه فتقول لي في لهجة وادعة تقع في نفسي وقعاً لم آلفه من قبل :

— لِمَ تتعب نفسك بهذا ؟ ... أليس من شيء هنا يستحق وقتك واهتمامك غيره ؟ ..

وكنت ألمس في قولها هذا غيرة وحناناً ، إلا أنني لم أكن لأدري ما محلهما بين حبّي للزهر وعنايتي به ... كما كنت لا أدري سبب سهومها وإطراقها الدائمين .. وتلك السحة الحزينة الساحرة الغالبة على محياها الوديع

وأخذ اهتمامي بالحديقة وما تحفل يتضاءل ... وعدت للتفكير والتفسير .. أفكر في هذه السحابة التي تكاد تعلو حياتي الهادئة في ذلك البيت الساكن الهادئ ...

كان جمالها يثير فى نفسى إحساساً غريباً لم أكن لأفقهه ، إلا أننى كنت ألمس فيه الارتياح البليغ إليها والميل إلى مجالستها لتعرّف ما كان يبدو لى غامضاً منها ...

كانت جميلة ، ولست أعنى بالجمال هنا قواماً فارعاً وعينين ساحرتين خضراوين ، وجفوناً ناعسة كثيفة الأهداب ، وشفتين قرمزيتين دقيقتين ، وشعراً ذهبياً مموّجاً . كلا ، فهى قد ملكت هذا النوع الظاهرى ... إنما أعنى الجمال الباطنى الروحى الخلاب ، الذى ينطق به سهومها ونظراتها الحيرى الحزينة ولهجتها الوادعة الوقور ، وابتساماتها التى تفيض علىّ سحراً يخالطه شعور يملأ نفسي ، شعور غامض لم آلفه فىّ من قبل . . .

وكنت أجد شفتى تنفرجان عن ابتسامة أحييها بها فتجيبنى بيسمة ساحرة سرعان ما تغيب ، وألفت أن أراها تبسم لى كلما التقى طرفانا ... كانت ابتسامة يرتسم بها محيّانا بسهولة تفوق مقدرة أفواهنا على تبادل الحديث

وحاولت عبثاً أن أحيط بما تكنه علماً ، وأن أخرق ستر الغموض الذى يحجب نفسيتها الدفينة عنى ، حاولت ذلك سدى ، وإنما كنت أخرج من كل محاولة وقد ازدادت غموضاً فى عينى ، كما ازددت ميلاً إليها أو بالأحرى رغبة فى تعرف ماتكنه وتخفيه

وكانت السويعات اللواتى تهب لى السعادة قليلة فأخلو بها فيهن معجباً مأخوذاً ، وكنت أرجىء محاولة تعرّفها إلى تلك السويعات الخوالد فى النفس . . لكن ذلك السحر الذى ينبعث من جمالها : جمال الخلق وجمال الروح ـ لا يدع لى تذكر ما انتويت ... ولا يفسح إلى ما اعتزمت سبيلاً

لقد زاد غموضها حبى لها . . . أجل حبى . . . ولقد اضطربت وارتجفت وأحسست أن شعوراً غريباً أفيض به عندما ألفيت فىّ اهتماماً بهـا ، وأدركت أن ذلك الشعور الغامض الذى أكنه لها ... لم يكن إلا الحب ! ! ...

كانت روحها الحزينة ونفسيتها الدفينة الغامضة قد ولّدتا فى ذلك الحب كما زادتاه ، وأسبغتا عليه قدسية كنت ألمسها فى صاحبته ... وشعرت لأول مرة أن ما أعتزّ به من كبرياء وعزة ونفس قد نكصتا خائبتين أمام سحرها وغموضها ...

أنا ... أنا الذى كان يلذ لى ألا أحفل بأى فتاة وألا أبدى أى التفاتة لأية كانت مهما بلغت من الجمال ومهما كان شعورها نحوى ، رأيتنى أحفل بها ، وأهتم بكل ما تبديه ، بل لقد تناول ذلك الاهتمام كل ما يخصها من شؤون حياتها حتى ما ترتدى وتطعم

وأحسست فىّ عجزاً كلّيًا عما انتويت اقتحامه فسحر عينيها يخسئ عينىّ ويردّهما خاشعتين منكسرتين ، وسحر نفسها يملأ نفسى شعوراً بل مشاعر كلها من الحب وإليه ...

وأخيراً ... وجدت أن خير ما أفعل لتعرفها ، لكشف الغموض المتشحة به . . . أن أكاشفها بحبى . . ولكن أنى لى أن أفعل هذا وفىّ ما عرفه الناس عنى من خجل وارتباك يملكانني ساعة أن أحادث أية فتاة ؟

وكان فى التلميح ما يشفى، ولم تك بغبية لا تفهم

ما أعنى . . . فقديماً قالوا : « إن الجمال والذكاء صنوان لا يفترقان » وإن ما تملكه من الذكاء لكفيل بإشعارها ما أعنيه

فقلت لها يوماً وقد قاربتنى مجلساً وكادت أنفاسها الحرّى تبلغ رئتيّ :

— ما أعبق ما فيكِ من عطر ... لقد أفاض علىّ نشوة لم آلفها من قبل ؟

فقالت بعجب : ولكننى لم أضع أى عطر . . .

— أجل لستُ جاهلاً هذا ...

— إذن مِمّ جاءنى ؟ !

فقلت وقد أصمّنى وجيب قلبى عما عداه :

— أنفاسك الحرّى العبقة

وازدادت سحراً وفتنة بحمرة الخجل التى كست خديها وبسدول جفنيها الناعسين على عينيها الساحرتين فى حياء خلاب

« إن حباً يباغت به فتى لم يألف غير الهناء والهدوء فى حياته القصيرة الفياضة بهناء الطفولة السعيدة ومرح الصبا الهنيء لما يكشف لمن باغت عن دنيا حفيلة بالسعادة لا تدوم ، فإن هى أدبرت وولت فإن ما تبقى له من سعادة الطفولة وهنائها لا طعم له ... فليست سعادة الحب وأيامه العِذاب بما يخسره الفتى بعد أن يخسر هواه فحسب ، إنما يخسر فوق ذلك تراثاً نفيساً من عهود الطفولة ، كان مقدراً له أن يخلد فيه لولا أن يجرفه سيل الحب المدبر أو تقلعه رياح الهجر والخيبة »

وهذا ما كان ... فقد نسيت ما بليت به من قبل وما دفعنى إلى هذا البلد مريضاً متعباً كئيب النفس ، محطم العصب ونسيت من خلفت فى بلدى من أهل وأتراب ... بل نسيت حتى زهرى الحبيب الذى أقبلت عليه مشغوفاً مهتماً ولما تمض علىّ فى ذلك البلد سوى ساعات ، نسيت كل شيء إلا هذه السحابة التى علت سماء قلبى الذى جئت هذا البلد آملاً أن تصفو فيه سماؤه من غيوم المرض وعواصف الرسوب ...

وقد كان ... إنما حجبت تلك السماء غيوم أخر ولما تنصع سماؤه بعد ، وكانت من نوع آخر ، كانت ترذّنى برذاذ ناعم ينذر بوابل كثيف من المطر والبرد ... وبعواصف ورياح لم يكن لقلبى بها عهد

ورحت أسائل نفسى محاولا أن أخلق من الداء دواء لما أصبت به ... أو تشعر بتلك العاطفة التى ولدت فىّ حديثاً ونمت حثيثاً ، ولكى أستطيع إيجاد الجواب أخذت أحلل كل ما كانت تبديه نحوى وأفسر ما تعنيه من حديث وبسمات ، ولكم ذهبت فى تأويل بعضها مذهباً آلمنى إذ أعزو ما كانت تبديه نحوى من رقة وبسمات ومجاملات ، إلى أنها أمور عادية ليست من الحب فى شيء ، أمور توجبها علىها غربتى عن بلدى وإضافتهم لى ... كما توجبها علىها صلة الأسرة الوثيقة التى تربط كلينا

وعدا هذا ... فقد يكون ما تبديه محاولة إزالة ما فىّ من هموم وأشجان أتيت بها من بلدى ... وما كان أشد الألم الذى يجتاحنى ساعة أن أرى فيما كانت تبديه هذا الرأى !

ومرّت أيام ... ولمس الكل فىّ تغيّراً بيناً فقد لازمنى الذهول والتفكير وأخذت أميل للوحدة والانفراد عازفاً عن كل ما يقدم لى ويهيئ من

رحلات وولائم ... راغباً عما وددت من الزهر والرفاق ...

حتى كان يوم لن أنساه ، كنا فيه منفردين نتناول ما عدت به من النهر فى ضحى ذلك اليوم من سمك صغير طرى .. وكانت كما ألفت مطرقة فى مهموم تحدق فى لا شىء ، حتى إذا ما تلاقى طرفانا غضت طرفها باسمة فى حياء بسمة ما أسرع ما تغيب عن فيها العذب . . . وكنت أفتر فى أكلى فأضع الجيد منه أمامها ... ولحظت هذا فقالت :

— لِمَ لا تأكل أنت ؟ أبق منه لك فكفاني ما طعمت ...

فقلت وقد أدركت أن هذا خير وقت أهتبله لأبوح لها بما أكن

— لا يضيرك أمرى

— ولِمَ ؟

— كلى أنتِ فإن شبعتِ فإن هذا كاف لى

فقالت بخفوت :

— أيهمك أمرى ؟ ...

— ولم لا ...

فأطرقت وقالت بنبرات صارمة أذهلتنى :

— ألا أستطيع أن أفهم ؟ !

— بإمكانك هذا ... إننى أحبك ... وقلتها كمن يريد أن يُفهم

وكان هذا القول إذ مسّها كرياح الشتاء ، فارتجفت بشكل جلىّ وتغيرت سحنتها ، فتساءلت وأنا أحاول أن أملك نفسى ...

— أيسوءك هذا ؟ ...

فقالت بعد صمت بنبرات لا تخلو من رعشة وتهدج :

— لقد فات أوان هذا ... لستُ أهلاً لحبك الآن ...

ونهضت باضطراب وسارت مسرعة حتى اختفت

ومضت أمسية ذلك اليوم وأنا أسائل نفسى عن معنى ما قالت ... محاولاً أن أفهم ما تعنيه فلم أستطع . وقضيت ليلةً لا كما قضاها الناس إذ بتها ساهداً ، وقد أفزعنى أن أجدنى محموماً متراخى الأعصاب ، وكانت تتراءى لعينى أشباح راعبة صوّرتها لى الحمى . وأغفيت وقد لاحت فى الأفق تلاميع الصباح . . . ولم أفق إلا على صوت الخادم العجوز وهى تقول :

— لقد تأخرت اليوم فى اليقظة يا سيدى

— أجل ، فقد سهدت أمس

— أكنت مريضاً ؟

— لا ، بل متعباً

— هذا حق . . . فقد أجهدتَ نفسك أمس فى صيد السمك ... وعلى فكرة ... أأعجبك طبخى لسمك الأمس

— جداً

— إن (لبيبة) قد عابته علىّ ... ولكن مهلاً لو كان خطيبها هو صائده لما عابته

وقلت وقد بانت الدهشة جليّة فى سؤالى :

— خطيبها ! ألها خطيب ؟

وقالت تنكر علىّ جهلى :

— أجل يا سيدى ، ألا تعرف ؟ ... وتمادت

فى الثرثرة . أما أنا فقد كنت لاهياً عنها بصدمة عنيفة فوجئت بهـا وفجمت . . . وأخيراً عرفت ما كان مجهولاً . . . أو كدت

* * *

بعد أيام ثلاثة قضيتها فى حال لا تسرّ ، كنت أتعمد فيها الخروج كثيراً للخلاء حذراً من رؤيتها كان البيت متهيئاً لوداعى وقد عجبوا لتعجّلى بالذهاب ولانقلابى الأخير . . . ولكننى احتججت بشوق لأهلى وشوقهم لى . . . وكانوا مشتغلين بحوائجى يهيئون لى ما أعدوه من هدايا وثمار . . .

أما أنا فقد كنت أفكر فى شىء أدرت طرفى باحثاً عنه فلم أجده . . .

وسرت مطرقاً وفى نفسى مشاعر يغلب عليها الأسى ، وفى ذهنى صور وطيوف تتلاحم فيه . . . ورفعت بصرى بغتة ليقع عليها وهى تحدق فىّ بألم وأسى . . . وراعنى فيها احمرار عينيها وأمارات الحزن العميق والسهد المضنى المرتسمة بوضوح فى محياها . .

وكانت شفتاها تختلجان كمن تريد الكلام ولا تقوى عليه ... وأدارت وجهها لتخفى دمعتين ذرفتهما عيناها

وخرجت مسرعاً وقد خيل إلى أن نحيبها يصل إلى أذنىّ ويدوّى فيهما

وعدت إلى بلدى ... وفى قلبى هم جديد ...

فيصل عبد الله

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد